تجلي أبناء الله (روم ٨: ١٩)

إنّ الخليقة تئنُّ وتنتظر...
الخليقة في مخاضٍ، في ألمٍ، وفي حَيرَة، ولكن ثروتها رجاءها، فـ"بالرجاء خُلِّصنا"...
هذا الرجاء يعطي خلاصًا عندما نعيشه، فنحيا بالإيمان ونلتزم المحبّة.

منذ الخلق وضع الله الكون بين يديّ الإنسان ودعاه للتسلّط عليه وأعطاه سلطةً كاملة وحريّة تامّة، والله القادر على كلّ شيء، يقفُ عاجزًا أمام حريَّة الإنسان لأنّه يحترمها ولا يُريد أن ينتهك كرامته الخاصّة. "فيا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه! ما أبعد أحكامه عن الإدراك وطرقه عن الاستقصاء!" (روم ١١: ٣٣).

أساءَ الإنسان استعمال الحريّة منذ البدء، منذ السقطة الأولى، ولم يزل، فتعادَى مع ذاته، مع القريب، مع الطبيعة، ومع الحيوان، حتّى صار المخرِّب الأوّل للطبيعة والحاقد على أخيه الإنسان. إنّ رحمة الله اللامتناهية، أرسلت ابنه الحبيب ليُصالحنا، مع الجميع، ويُعِيدنا إلى طبعنا الأوّل، لنكون عملةً في ملكوته، وعند اكتمال الملكوت تصبح الأرض سماءً، "ويعيش الذئب مع الخروف، ويَربض النمر مع الجدي، والعِجل والشِّبلُ المسمَّن معًا" (أش ١١: ٦) ونعيش السلام والمحبّة.

إلى ذلك الوطن ننظر وإيَّاه ننتظر، خاصَّةً في الظروف الصعبة من تاريخ البشريّة، ونصرخ وسط أشدّ الاضطّهادات: "لا لنا، يا ربّ، لا لنا، لكن لاسمكَ" (مز ١١٥: ١). نئنُّ، نخاف، نرتعب، نُضطَّهد، ولكن خلاصنا هو برجائنا. وعندما ينعدم الرجاء، فلا خلاص، ونعيش شريعة الغاب، القويّ يأكل الضعيف، الظّالم يفتخر بظُلمه، وهذا ليس من صفات وفضائل المسيحي، بل إنّ الألم والصعوبات هي مخاض، هي ألمٌ يُثمر فرحًا، يعطي حياة، يعطي مُشاركة.

الإشارة إلى موضوع التبنّي، يوفِّرُ فرصةً مناسِبة للرسول بولس لتناول موضوع المصير النهائي للذين تحرّروا من الخطيئة ومن الموت. لكن كيف يمكن التوفيق بين الرجاء والوضع الحالي الذي يعيشونه، الذي يتمثَّل بالمعاناة التي تنتهي بالموت؟ رجاؤهم بالمستقبل يتعلّق بحقيقة كونهم أبناء الله. هم "ورثة الله ووارثون مع المسيح" (روم ٨: ١٧)، أي مرتبطون بالمسيح بمبادرةٍ إلهيّة. معاناتهم الحاليّة تؤكّد مصيرهم النهائي. في الواقع، كلّما اتّحدوا بالمسيح، يواجهون عدم استقرار الطبيعة البشريّة، التي تنتهي بالموت. إنّهم أصحاب النصر الكامل على الموت، أي أبناء القيامة.

لكنَّ اختبار الضيقات والآلام يبدو متعارضًا مع الرجاء بالقيامة، المؤسَّس على الإيمان بقيامة يسوع المسيح. كيف يمكننا أن نتكلّم على تجلّي أبناء الله الأحرار عندما نختبر كلّ يومٍ المرض، التدهور العقلي والجسدي الذي يُنذِرُ بالاضمحلال والموت؟ يأخذ بولس المبادرة من هذا الوضع ليصوِّرَ الرجاء المسيحي الذي يقوم على عمودين: الأوّل هو قوّة الله الخالق أصل كلّ شيء، والثاني قيامة المسيح يسوع، الذي قلب رأسًا على عقب كلّ ما يمكنه أن يؤدّي إلى الموت. على أساس الإيمان المشترَك بين الرسول وسامِعي الرسالة، كان بولس مقتنعًا بأنّ "آلام هذا الدهر لا توازي المجد المزمع أن يتجلّى فينا" (روم ٨: ١٨). "المجد" هو حالة أبناء الله النهائيّة، التي دخلها المسيح بقيامته. المؤمنون المعمَّدون ما يزالون يعيشون مرحلة الآلام التي تتماشى مع موت يسوع. المجد يُنتظَر كحقيقةٍ آمنة ونهائيّة عليها أن "تتجلّى". إنّها، في الواقع، تعتمد على مبادرة الله الحرّة والمجّانيّة.

يرسم بولس صورةً لتجلّي "مجد أبناء الله" إلى الحدث الأخير، حدث القيامة (روم ٨: ١٩-٢١). يؤكّد النصّ البولسي، المستوحى من لغة الأنبياء، ويؤكّد تضامن المصير بين الخليقة وأبناء الله، حتّى ولو بَقِيَت غامضة ومُبهَمة الإشارة إلى عبوديّة الخليقة الخاضعة للوقوع وللفساد. في خطوةٍ ثانية، يُصوِّر بولس شوق الخليقة المتضامنة مع مصير الكائن البشريّ، ويعبِّر عنها بواسطة استعارةٍ نبويّة عن آلام المخاض.

يؤكّد بولس أنّ الخلاص لا يكتمل إلاّ عندما يتمّ التغلّب على الموت الذي يؤثّر على الكائن البشري في جسده. بدون خلاص الجسد بالقيامة، يبقى الخلاص حقيقةً موعودة، ولكن غير مُكتَمَلة. حضور الروح القدس في المؤمنين، يَسبِق تحقيق الخلاص كما تُمهِّد أولى الثمار للحصاد. الروح يعضد انتظار المؤمنين الذين يتأوّهون داخليًّا بتناغمٍ مع أنَّاتِ جميع الخلق. لذلك، الآلام الحاضرة في العالم وفي البشريّة هي كالمخاض الذي يسبق الحياة الجديدة المزمعة أن تولَد.

ما يؤكّد هذا الرجاء بالخلاص هو الصلاة بواسطة الروح القدس الذي يُفسِّرُ انتظار المؤمنين ويوّجهه نحو تمامه. في الواقع، صلاة الروح القدس تتناغم مع مشيئة الله في حياة المؤمن.

إنّ ما أعدَّه الربّ لمحبّيه يُذكِّرُ بكلام الربّ يسوع: "إنّ ملكوت السماوات يُغصَب والغاصِبونَ يختطفُونَهُ" (روم ٨: ١٩). ولكن بأيّ معنى؟ إنّه يحضِّرُ المؤمنين إلى العمل في سبيل ملكوت الله. وهذا ليس مجرّد نزهةٍ بسيطة، بل يتطلّب جهدًا وتعبًا يكمّل من خلاله الإنسان "ما نقص من آلام المسيح" (كول ١: ٢٤).

إذًا، الرجاء المسيحي هو الذي يجعلنا نُدرِك أنّنا في أرضٍ غريبةٍ عنا، نسيرُ فيها ولكن لا بقاء لنا فيها. ومهما بلغ الإنسان من فرح، فلن يصل إلى السعادة، ولن يدومَ البقاء، بل كلّنا مصيرنا الرحيل، والسعادة الحقيقيّة هي أن نستريح بلقاءِ الربّ، لأنّ ما ينتظرنا لا يُوصف.

الرجاء الذي يتكلّم عليه القدّيس بولس، هو من جوهر الإيمان المسيحي، وقد تكلّم عليه أيضًا المجمع الفاتيكاني الثاني الذي أعطى دستورًا رعويًّا سمّاه "فرح ورجاء"، أو "الكنيسة في عالم اليوم". فالرجاء المسيحي ميزة شعب الله السائر نحو المدينة السماويّة. والجماعة المسيحيّة، الكنسيّة، تترجّى الكمال في مجد السماء، في تجديد كلّ شيءٍ في المسيح يسوع.

وحتّى الخليقة تئنّ وتنتظر اليوم الذي يعود فيه الإنسان إلى مجده، ولكن الإنسان يتوغّل في شرّه! قال الله يومًا، قبل تجسّد المسيح وفدائه: "ملعونةٌ الأرض بسببكَ" (تك ٣: ١٧). لكن هذا الأخير لم يزل يُمعِن في هذه المعصية التي لن تزول إلاّ بالروح القدس المجدِّد، الذي يدعو إلى التوبة، وإلى العودة إلى الحضن الأبوي لكي يعود كلّ شيءٍ حسنًا لأنّ الله هكذا أراده، وهكذا يصير المسيح الكلّ في الكلّ.

فلنترك الروح يعمل فينا، يصلّي فينا، يغيِّر فينا، يحرّر فينا، فكلّ شيء يريده الله لأجل خير الإنسان وخلاصه وعلى الإنسان العمل لاكتمال ملكوت الرب.

نحن اليوم موجودون في بيئة بدأت تتناسى وتجهل معنى وجودها: الإنسان موجود ليرث الملك المعدّ له من قبل انشاء العالم. هذا هو الرجاء المسيحي وكل ما يبعد عن هذا الهدف هو منافٍ للمسيحية ولتعاليم الكنيسة.

لنجتهد إذاً لتحقيق هذا الهدف لكي يعرف العالم قيمة وجوده، فالإنسان ليس آلة صناعية تنتج كذا وينتهي دورها عندما تتعطّل أو عندما تنتفي الحاجة اليها، بل الإنسان هو فريدٌ بعين الرب مهما كان وضعه والرب يريده، فمهما بلغت التضحيات يجب ألاّ نفوّت فرصة استحقاق الملكوت.

كثيرون اليوم يذهبون في رحلات حجّ إلى أماكن القداسة والقدّيسين: شربل، رفقا... ونسمع الكثيرين يقولون "نيّالك يا شربل، نيّالك يا رفقا". ولكن لنتذكّر أنّ الربّ أعطى الطوبى لمن يسمع كلمته ويعمل بها (لو ١١: ٢٨). وإن كان اليوم يتوجب تحمّل صعاب أكثر، فالمنتظر يستحق، فليس المهم أن نذهب إلى القدّيسين، بل المهمّ هو أن نقتفي آثارهم ونقتدي بهم في تحمّل كلّ شيء من أجل المسيح، لنصل إلى ما وصلوا اليه، ويكون اللقاء بالرب حيث السعادة التي لا توصف والتي لا تخطر على قلب بشر.